دورُ السياقِ في تفسيرِ الآياتِ المتشابهةِ لفظًا

أ.م.د. داود إسماعيلي
كلية الإلهيات و معارف أهل البيت/ جامعة إصفهان

Investigating the role of context in the interpretation of similar verbal verses of the Holy Quran

Asst.Prof.Dr. Davood Esmaeil
College of Divinities and Knowledge of Ahl al-Bayt
University of Isfahan
Email: d.esmaely@theo.ui.ac.ir

ملخص البحث

هناك آياتٌ في القرآن الكريم اصطلح عليها الباحثون بـ(المتشابهة) ؛ وذلك لتشابه حروف ألفاظها كلها أو بعض حروفها ، وفي هذه الآيات، بالرغم من التشابه اللفظيّ الموجود بينها، نجد بعض الاختلافات فيها كالتقديم والتأخير، والزيادة والحذف، وذكر بعض أجزاء الآية ، أو حذف شيء منها، والتعريف والتنكير، والتعبير عن بعض المعاني بصيغة المفرد أو الجمع، والإيجاز والإطناب، واستبدال حرف أو كلمة بأخرى.

وهذه الأمور قد تبعث تساؤلات في ذهن المتلقي حولَ سبب تكرار هذه الآيات، وذلك مما يوهم بالتباس موجود فيها من النظرة الأولى .

سنحاول جاهدين في هذا المقال أنْ نقوم بإعادة قراءة الآراء التفسيرية لبعض المفسّرين في هذا الباب أولًا، وبدراسة دور (السياق) ومدى تأثيره عليهم عند مواجهتهم لهذه الآيات ثانياً. كما سنبين في هذا المقال سببَ الاختلافات الموجودة في الآيات المتشابهات.

وبعد دراسة السياق في الآيات المتشابهة لفظا، ستكون النتيجة رفع التناقض الموجود في ظاهر هذه الآيات، وبالتالي رفع كلّ الالتباس في معانيها، وإظهار معناها الخفي بشكل صحيح.

كلمات المفتاحية : القرآن، التشابه اللفظيّ، التكرار، السياق.

Abstract

Verbal similarity occur among some verses of the Holy Qur'an that have similar words. These verses despite the verbal similarities are different with respect to the priority or delay in the order addition or omission mentioning some components or omitting them being defined or non-defined plurals or singulars brevity or extension conversion of one letter to another or word to word. These features make it difficult at first glance to understand why these words are being repeated due to similarity and obscurity in meaning. This study intends to re-read the interpretive opinions of some commentators of the Qur'an on the one hand to explain the key position and role of the context in their confrontation with these verses and on the other hand to remind the differences between these verses of the Qur'an. Examining the context in these verses indicates that there is no indulgence in the words of revelation and eliminates the apparent contradiction of these verses. Thus it approves semantic continuity hidden in the Qur'an and the possibility of finding the correct meaning of this part of the verses.

Keywords: Quran, verbal similarity, repetition, context.

المقدّمة

يُعَدُّ (التكرار) عنصرا من العناصر الموجودة في جميع اللغات؛ ويُستعمل لتبيين الكلام وإظهار أهميته ، والتوكيد على معناه. إذ يُسهم التكرار في ترسيخ مسائل معيّنة في ذهن المخاطب.

للتكرار في الآيات دور مهمّ في المعاني ، خاصّة المرتبطة منها بالتربية والتعليم، والتي تتطلّب كثيرًا من التركيز، والتعلّم، والالتفات والانتباه. ويُعدّ القرآن أعظم محتوى في مجال التربية والتعليم وهداية الإنسان قد وُظِّف التكرار كثيرًا في القرآن على أفضل نحوٍ ممكن ، في سبيل تبيين مقاصده لكافّة الخلق. لذلك نجد التكرار يظهرُ : في المسائل العَقديّة كالتوحيد ، والإيمان بيوم الحساب، وكتاب الأعمال، وكذلك الحساب والعقاب ؛ ولأنّ فنّ التكرار يُرسِّخ هذه الحقائق في أذهان الناس ؛ سيؤدي إلى ترسيخ الايمان في قلوبهمومثال ذلك تكرار عبارة (أَإِلَٰهٌ مَعَ الله) خمس مرّات في سورة النمل ؛ لتثبيت أمر التوحيد في أذهان المخاطبين.

ومما علينا التسليم به هو أنّ (للسياق) دورًا كبيرًا في تكوين قصدية النصّ، وبيان مقاصد المتكلّم بشكل جليّ. وبطبيعة الحال، فإنّ الباحثين في مجال القرآن يؤمنون بأنّ السّياق هو أحد الطرق لفهم الآيات ، وتفسيرها بشكل واضح وصحيح ؛ لذلك يستعملونه للردّ على الشّبهات الواردة حول القول بعبثيّة تكرار بعض قصص القرآن الكريم.

وإنّ الباحثين يعتقدون جازمين بأنّ التكرار، على الرغم من أنّه يبدو أمرًا بعيدًا عن الحكمة والبلاغة والفصاحة بادئَ الأمر، ليس إلّا إعجازًا بيانيّا نتوصّل إليه بعد الدراسة والتمعّن في النصِّ القرآني ؛ لذلك نرى أغلب الباحثين في مجال الدراسات القرآنيّة يقرّون بأنّ توضيح الآيات وتفسيرها، وتسليط الضوء على الجُمَل، بل لا يُمكن فهم المفردات القرآنية حينما نهمل السّياق المصاحب التي وردت فيه ، وبما أنّ لكثير من الآيات القرآنية وحدة في السّياق بالنسبة إلى الترتيب، والموضوع، والمنهج والنزول، فلا يمكن إدراك المعاني القرآنية بدقّة بالغة إلّا بعد فهم المعاني بشكل صحيح وسديد.

والعثور على الظروف الزمانية والموضوعية لهذه الآيات المتشابهة لفظا، وفهم الأحكام القرآنية لا يكون في متناول اليد إلّا بمعرفة السّياق والتناسب والتناسق الموجود بين الآيات. فنجد أحيانًا كلمة أو جملة عند تغيير السّياق نظرًا إلى القرائن الموجودة نجدها تدلّ على معنى متناقض تمامًا.(١)

١ـ السياق لغة واصطلاحا:

جاءت مفردة السياق؛ من مادّة (س و ق)، وأصله (سِواق) أبدلَت واوه إلى الياء لوجود الكسرة على السين. إذن فالمفردتان؛ (السواق) و(السياق) مصدران لفعل (ساقَ، يسوق).(٢) وهي عند أكثر اللغويين بمعنى قيادة الشيء ، أو الدوابّ وتحريكها ؛ كذلك يُطلق لفظ السياق على مَهر النساء ، ووجه تسمية ذلك أنّ العرب كانوا يضعون الدوابّ والإبل مهرًا للنساء في الزواج وكانوا يسوقونها نحو بيت والد البنت(٣).

لقد تحوّل استعمال هذه المفردة عبر الزمن من الأشياء والحيوانات إلى الكلام والنصّ. إذن فـ(سياق الكلام) بمعنى السّرد، يدلّ على نقل الكلام أو النصّ بانتظام.(٤)

أمّا كتب اللغة الحديثة فقد عبّرت عن السياق بـ(النسيج)، و(البناء)، و(الظاهر)، و(البِنية)، و(التسلسل)، و(الحقل)، و(النص).(٥) فمن الواضح أنّه تمّ لحاظ معنى التتابع والتوالي ، والاتّصال والارتباط في المعنى اللغوي لمفردة (السياق).

ويختلف معنى السياق في اللغة والاصطلاح. وذلك يكون في التعبير عن جملة تدلّ على معنى خاصّ في نفسها إذا ما وقعت بمفردها. ولكنّ معناها قد يتغيّر بتواجدها ضمن جمل أخرى. لذلك فإنّ بعض المحقّقين في هذا المجال يعبّرون عن السياق بأنّه مجموعة من العبارات والمفردات المترابطة ، والمتناسقة مع روح البحث مما تعين القارئ على فهم النصّ،

(١) دروزة، د.ت: ١٩٩؛ الحسيني، ١٩٨٨: ١٢٥.
(٢) ابن فارس، ١٤٠٤: ٣/ ١١٧؛ ابن أثير، ١٣٨٣: ٢/ ٤٢٤؛ الزبيدي، ١٤١٤: ١٣/ ٢٢٦.
(٣) ابن منظور، ١٤١٤: ١/ ١٦٦.
(٤) ابن منظور، ١٤١٤: ١/ ١٦٦؛ الفيومي، ١٩١٢: ٢/ ٢٩٦؛ الطريحي، ١٣٧٥: ٥/ ١٨٨.
(٥) آذرنوش، ١٣٨٨: ٣١٠.

واستيعابه بشكل أفضل وترشده إلى ما يرمي إليه كاتب ذلك النص. ويعبَّر عن السياق أحيانًا بـ(أسلوب الكلام وطريقة الخطاب)[١].

وهناك بعض الباحثين في هذا المجال يعدّون السّياق عبارة عن إطار عامّ تجتمع وتنتظم فيه عناصر النصّ، وتترابط فيه المفردات. وهو عبارة عن مقياسٍ تتّصل به الجُمل واحدة بالأخرى. وفي الوقت ذاته، فإنّ السياق ترتيبٌ لغويّ متداولٌ يحافظ على العناصر المعرفية الموضوعة في النصّ من أجل قارئ ذلك النصّ[٢].

ونظرًا إلى الاختلاف الموجود في مفهوم السياق يمكننا أنْ نقوم بتقسيم ما بيّنه المحقّقون في شرح السياق إلى قسمين: أوّلًا : التعريفات التي لا يكون السياق فيها إلّا قرينة لفظية، ويعبّر عنه تارة بـ(السياق اللغوي). وعلى هذا التعريف، فإنّ السياق خاصيةٌ من خصائص اللفظ ، أو العبارة أو الكلام؛ وبالتالي فإنّه يتكوّن بجانب الكلمات والعبارات؛ بمعنى أنّه قد يدلّ على معنى آخر أحيانًا، مضافًا إلى ما تدلّ عليه كلّ من تلك المفردات والجمل.[٣] وقد صرّح كلّ اتبع هذا المعنى عن السياق: "إنّ التتابع والنظم في معاني مجموعة من ألفاظ القرآن من أجل فهم واستيعاب قصد المتكلّم بشكل واضح وجليّ هو ما يُعبَّر عنه بالسياق القرآني[٤].

ثانياً: التعريفات التي يشتمل السياق فيها على الدلالات المقالية والحالية. والسياق أنْ يكون للّفظ معان متعددة في اللغة وأحدها أقرب إلى اللفظ لغويا من سائر معانيه، فمَن يُعرّف السياق بهذا الحدّ يعتقد بأن السياق عبارة عن دليل مرتبط بألفاظ وعبارات ذلك النصّ؛ وكلّ ما يكتنف اللفظ الذي نريد فهمه من دوالّ أخرى، سواء كانت لفظية كالكلمات التي تشكّل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاما واحدا مترابطا، أو حالية كالظروف و الملابسات التي تحيط بالكلام و تكون ذات دلالة في الموضوع، أو كانت قرينة حالية

(١) الشرتوني، ١٣٩٢: ٥٨٨؛ صدر، ١٤٣١: ١٠٨.
(٢) بودرع، د.ت: ١٧.
(٣) رضائي كرماني، ١٣٧٦، العدد ١٠: ٩.
(٤) لاشين، ١٤٠٣: ١٥.

يلقى فيها ذلك الخطاب؛ كالأوضاع، والأحوال، والشرائط والملابسات، فهي تكشف لنا تلك الظروف والملابسات الحافة بالموضوع ومفادّ اللفظ والعبارات المستخدمة في ذلك المجال[١].

وعلى هذا التعريف يكون السياق مجموعة من الظروف التي تحيط بالكلام. فمجرّد التعرّف ، أو الالتفات إلى ألفاظ وعبارات القرآن ، لا يوصلنا إلى فهم المعنى المراد من النصّ، بل على المخاطب أنْ ينظر إلى القرائن اللفظية الموجودة في تلك المفردات والظروف التي نزلت فيها تلك الآيات وما شابه ذلك من الأمور؛ من أجل معرفة ما يرمي إليه المتكلّم بشكل واضح وجليّ. فإذن معرفة سياق كلّ من القرائن اللفظية وغير اللفظية، وكذلك القرائن اللبّية والعقلية يؤثّر كلّ التأثير في فهم معنى الآيات القرآنية.

٢ـ المتشابه لغة واصطلاحا:

(المتشابه)؛ اسم فاعل مشتقّ من مصدر (التشابه). يُطلَق (شَبَه) على كلّ شيء يمتلك مواصفات شيء آخر كالظاهر، أو اللون أو غير ذلك.[٢] وقد أشار (الفيروز آبادي) بقوله: "تُستعمل هذه الكلمة عندما نواجه شيئًا يشبه شيئًا آخر بحيث يعسر علينا تمييزه"[٣].

ويُعبّر آخرون بـ(المشتبهات)عن الأمور الصّعبة العسيرة، وعن الـ(المتشابهات) بالأشياء التي تناظر الأخرى[٤].

ويرى (المصطفويّ) بأنّ المعنى الحقيقيّ لهذه المفردة هو قيام الشيّء مقام الآخر بسبب شبه الشيئين في الظاهر[٥].

(١) الصدر، ١٤٣١: ١٣٠؛ وانظر: الفوزي، ٢٠١١: ١١١.
(٢) ابن فارس، ١٤٠٤: ٣/ ٢٤٣؛ الراغب الإصفهاني، ١٣٧٤: ص٤٤٣.
(٣) الفيروز آبادي، ١٩٥٢: ١٦١.
(٤) الجوهري، ١٤٠٧: ٦/ ٢٢٣٦؛ ابن منظور، ١٤١٤: ١٣/ ٥٠٣.
(٥) المصطفوي، ١٤٣٠: ٩/ ١٦.

إذن فيمكننا جمع آراء اللغويين في مفردة (المتشابه) في أمرين:

الأوّل: شبه المعنى بشيء آخر.

الثاني: الصعوبة والإحراج في تمييز المعنى الصحيح.

وعلى هذا وما كتبه الباحثون في القرآن؛ فإنّ معنى (المتشابه) في الاصطلاح يكون في مجالَين؛ وذلك بمعنى أنّ بعضَ الأحيان يراد من المتشابه، التشابه في المعنى وهو يدلّ لوجود بعض القرائن على شيء من الاشتباه والإشكال؛ لأنّ بعض الأحيان يختلط المعنى بينهما فيصعب على المرء التمييز. وذلك واقع في عديد من الآيات القرآنية ؛ إذ قد التبس فيها المعنى المراد حقيقةً. ففي مثل هذه الأمور، لا يكون المعنى المقصود هو ما يتبيّن لنا من ظاهر الكلام. وهنا يُطلق اصطلاح (المتشابه) في مقابل (المحكم). وقد عبّر عنه المحقّقون في علوم القرآن بـ(المتشابه المعنوي).[1] وقد يراد أيضًا من (المتشابه)؛ التشابه اللفظيّ في آيات القرآن الحكيم ؛ وذلك حينما نجد ألفاظًا متشابهة في القرآن إلى حدّ كبير، ولكن لا يخفى أنّ الهدف من استعمالها مختلف تمامًا.

وهناك خلاف بين المحققين في مدى حيّز التشابه اللفظي، فلم يتّفقوا على حدّ معيّن طبق قاعدة خاصّة ، ويرى بعضهم أنّه يُختصَرُ على الروايات والقصص القرآنية ؛ وعلى رأي هذه الفئة فإنّ التشابه اللفظيّ هو بيان رواية وقصّة بأشكال مختلفة بتغييراتٍ في مقام الألفاظ عبر التقديم والتأخير، والإضافة والحذف، والتعريف والتنكير، والجمع والإفراد، والفك والإدغام، وكذلك إبدال حرف بحرف آخر[2].

هذا وإنّ البعض يرى بأنّ الآيات المتشابهات في اللفظ هي الآيات الّتي تكرّرت عينًا، أو الآيات التي فيها اختلاف من جانب التقديم والتأخير، والزيادة والنقصان في بعض التعابير أو غير ذلك من الأمور.[3] ويرى آخرون بأن الآيات المتشابهات هي الآيات التي

(١) الزركشي، ١٤١٨: ١/ ٤٠؛ السيوطي، ١٤٢١: ١/ ٥٩٢؛ معرفت، ١٣٨٤: ١٣.
(٢) الزركشي، ١٤٢١: ١/ ١١٢؛ أبو البقاء، ١٤١٩: ٨٤٥؛ السيوطي، ١٤٢١: ٣/ ٢٣٩.
(٣) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ١٤٥؛ الكرماني، ١٤١٨: ٩٨؛ ابن جماعه، ١٤١٠: ص٨٠.

نزلت في أكثر من مقام واحدٍ بطُرق وأساليب مختلفة[1].

وعلى هذا يمكننا القول بعد دراسة آيات القرآن والمؤلّفات في مسألة التكرار بأنّ الآيات المتشابهات لفظًا هي التي تشبه الأخرى في بعض ألفاظها، وإنْ كانت هذه الآيات ورغم تشابهها تختلف مع الآية المتناظرة معها في بعض الأمور كالتقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، وذكر بعض الأجزاء أو حذفها، والتعريف والتنكير، والجمع والإفراد في المفردات، والإيجاز والإطناب، واستبدال حرف أو مفردة بأخرى.

وبما أنّ الآيات المتشابهات في اللفظ موجودة بشكل أوسع في القصص القرآنية، فيما يأتي أدناه نماذج من قصص قرآنية تكون مصداقًا للتشابه اللفظيّ في القرآن وعلى الباحثين أنْ يتأملوا فيها ، ويسبروا أغوراها. ولا يخفى أنّ هذا التشابه يوجد في غير القصص القرآنية أيضًا.

٣ـ دورُ السياق في إعادة النظر في معني الآيات المتشابهة

كما بيّنّا سابقًا فإنّ في التشابه اللفظي، هناك ألفاظا أو آيات تشبه بعضُها بعضًا في الظاهر فقط، وأنّ معناها يختلف حسب موقعها ومجال استعمالها في النص؛ بمعنى لا يمكن حذف أو استبدال أيّ لفظ مع لفظ آخر.

إنّ دراسة سياق الآيات المتشابهة في اللفظ والبحث في كلّ من العناصر الموجودة فيها تمنحنا إدراكًا واسعًا حول علّة الاختلاف في هذه الآيات ، وتدلّنا على أنّ الاختلاف في كلّ من هذه الآيات هو حسب التناسب والتناسق اللفظيِّ والمعنويّ مع سياق تلك الآية؛ كما أنّ كلًّا من تلك الآيات واقعة في مقامها الموافق لها في سياقها الخاصّ والمتناسب مع قرائنها اللفظية وغير اللفظية المترابطة مع بعض. إذن، فلكلّ من هذه الآيات معانٍ جديدة في مقامها الخاصّ، ولا يمكن الادّعاء بأنّ تكرارها أمر عبثيّ لا فائدة منه.

كذلك فإنّ الباحثين والمحققين في مجال الدراسات القرآنية، والذين ينظرون في هذه الآيات بمنظار توظيف السياق، يستطيعون أنْ يعثروا على مسائل أعمق وأدقّ في هذه

(١) أبو زينه، ٢٠٠١: ١٦.

الآيات. ومما توصّلوا إليه هو أنّ الاختلاف في مثل هذه الآيات ليس من باب التناقض، أو محاولة للتنويع فيها من جانب المتكلّم، وإنّما هو استعمال كلّ مفردة على نظام خاصّ من أجل التناسب والتناسق اللفظيّ والمعنويّ مع ألفاظ الآيات المحيطة بتلك الآية؛ سواء كانت قبلها أو بعدها؛ كذلك فإنّ الألفاظ في هذه الآيات تتلاءم مع الظروف والبيئة التي نزلت بها تلك الآيات.

نستعرض الآن بعض الآيات المتشابهة التي تأمَّل المحقّقون في سياقها .

١ـ ٣ـ عندما نقوم بقياس آيتَي ﴿ فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّك ﴾[١] و ﴿ فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِين ﴾[٢] ففي الآيتَن اللتَين يتحدثان حول رسالة النبيّ موسى عليه السلام نجد بهذا القياس أنّ مفردة (رسول) جاءت في الآية الأولى بصيغة المثنّى، وفي الآية الأخرى جاءت بصيغة المفرد. يؤكد (ابن الزبير) في بيانه على اختلاف هاتين الآيتين على أنّ مفردة (رسولا) في سورة (طه) جاءت وَفقًا للقول المشهور فيها. إذ أنّ التثنية تُستعمل للشخصين عادة؛ أمّا في سورة (الشعراء) فقد جاءتْ بشكل مطلق. ومن الوارد الصّحيح استعمال المطلق بدل المفرد، والجمع، والمذكر، والمؤنّث إلّا أنّه أقلّ شهرة. يقول ابن الزبير: "لقد تمّ استعمال اللغة المشهورة في سورة طه؛ لأنّها أقدم في النزول من سورة الشعراء".[٣]

ويرى آخرون في الحديث عن هاتين الآيتين أنّ لفظ المفرد يدلّ على (الرسالة)؛ لأنّهما قد أُرسلا من أجل أمر واحد. ولفظ التثنية جاء ليدلَّ على الشخصين [موسى وهارون].[٤]

كما إنّ كثيرا من المفسّرين يعتقدون بأنّ قوله (رسول) في سورة الشعراء تطلق على موسى وهارون معًا؛ وذلك لأنّهما قد بُعثا أخوَين على شريعة واحدة فكأنّهما رسول واحد.[٥]

(١) سورة طه؛ الآية : ٤٧.
(٢) سورة الشعراء؛ الآية : ١٦.
(٣) الغرناطي: ١٩٧١: ٢/ ٦٨٢.
(٤) الكرماني، ١٤١٨: ١٧٦.
(٥) الفخر الرازي، ١٤٢٠: ٢٤/ ١٢٤؛ أبو حيان، ١٤٢٠: ٦/ ٢٣٠؛ سيّد قطب: ١٤١٢: ٥/ ٢٥٩٠.

أمّا بعض المعاصرين فلهم رأي آخر إذ يقولون بالنظر إلى السياق الموجود فإنّ الدليل في ذلك هو أنّ سياق الآيات في سورة طه مبتنٍ على التثنية كما هو ظاهر في قوله: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى ﴿٤٤﴾ قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى ﴿٤٥﴾ قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى ﴿٤٦﴾ فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى ﴾[1] فوردتْ كلمة (رسول) على التثنية على عكس سياق الآيات في سورة الشعراء؛ إذ ابتنى على الإفراد: ﴿ قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ ﴾[2] لذلك تمّ استعمال هذه المفردة على الإفراد.[3]

٢ـ٣ـ لقد جاء في سورة التوبة: "وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ"[4] وتمّ استعمال فعل (طُبع) مبنيًا للمجهول. أما في السورة نفسها وفي آية ٩٣ فقد تمّ استعماله مبنيًا للمعلوم في قوله: ﴿ وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾. قام بعض المحقّقين بربط الفعل المجهول في الآية الأولى بما قبله من الآيات؛ لأنّ الله يذكر فيها: ﴿ وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾[5] فكما لم يسند فعل (الإنزال) إلى الله كذلك الحال مع قوله (طُبع). أما في الآية الثانية فجاءت الأفعال قبل هذه الآية على المعلوم، فتمّ استعماله على صيغة المعلوم رعاية للتناسب ، والتناسق اللفظيّ في الآيات[6].

ويبرر(السامرائي) هذا الاختلاف مستدلّا بأنّ الفعل المعلوم أثبتُ في القلب من المجهول فيقول: "يُستعمل الفعل معلوما في الكلام الذي فيه تأكيد ومبالغة. أمّا إذا لم يكن

(١) سورة طه؛ الآيات : ٤٢ـ ٤٧.
(٢) سورة الشعراء؛ الآيات : ١٢ ١٦.
(٣) السامرائي: ١٤٢٠: ٩٧ـ ٩٩.
(٤) سورة التوبة؛ الآية : ٨٧.
(٥) سورة التوبة؛ الآية : ٨٦.
(٦) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ٤٧٠؛ الخطيب الإسكافي، ١٤١٠: ٢٠١.

هناك توكيد كبير في الكلام فيتمّ ايراد الفعل المجهول [1].

فضلا عن كلّ ما ذكرنا في هاتين الآيتين نجد أنّ الأجواء والظروف المذكورة في الآية الثانية في مقام بيان كفر المنافقين وضلالهم ، وغضب الله عليهم هي أشدّ من الآية الأولى. وهذا هو سياق الآية الأولى: ﴿ وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لايَفْقَهُونَ ﴾[2].

أمّا سياق الآية الثانية فهو كما يلي: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لايَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ ﴾[3] ؛ في سياق الآية الأولى لم يأت سوى ذكر إستئذان المنافقين من النبيّ للقعود عن الحرب عندما جاء الأمر بالجهاد في قولهم: "ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ". أمّا في سياق الآية الثانية فقد تمّ ذكر بعض صفات هؤلاء المنافقين مما يدلّ على ضلالهم وغضب الله عليهم. ويتّضح ذلك حين يأمر الله رسوله بعدم قبوله عذر المنافقين في قوله: "قُلْ لا تَعْتَذِرُوا" وكذلك حين إخبار رسوله ، وطلب أن يخبروهم تصديقهم في قوله: "لَنْ نُؤْمِنَ لَكُم". وقد أخبر الله المؤمنين عن أخبار المنافقين في قوله: ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ﴾ فيأمرهم بالإعراض عنهم؛ ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ ويوصف لهم المنافقين بأنّهم رجس: ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ ، وأنّ مأواهم جهنّم: ﴿ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. فبالتالي ليس على المؤمنين أنْ يرضوا عن المنافقين؛ لأنّ الله سبحانه لن يرضَى عنهم على أيّة حال؛

(١) السامرائي، ١٤٣٠: ١١٨.
(٢) سورة التوبة؛ ٨٦ ٨٧.
(٣) سورة التوبة؛ الآيات : ٩٣ ٩٦.

لأنّهم قوم فاسقون: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ ﴾

بعد الدراسة وإمعان النظر في سياق هذه الآيات يتبيّن لنا أنّ اسناد الفعل إلى الله على صيغة المعلوم يناسب الحال في بيان شدّة كفر هذه الفئة ، والتأكيد على هذا الموضوع[1].

٣-٣- يمكن التعبير عن الاختلاف في الآيات التي تتحدّث عن هبوط آدم عليه السلام بالالتفات إلى سياق هذه الآيات. فمن باب المثال في هذه الآيات الثلاث: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]؛ و ﴿ قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ. قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ ﴾[3]؛ و ﴿ قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى ﴾[4].

ذُكِرَت مسألة الهبوط في سورة البقرة بفعل (قُلنا) وفي سورة الأعراف بفعل (قال). ويرى الباحثون أنّ السياق هو سبب اختلاف الأفعال هنا ؛ بمعنى أنّ القصّة هذه في سورة البقرة ذُكرت في بضع مواضع بالاسناد إلى الله تعالى؛ كقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ... ۝٣٤ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ ﴾[5] لذلك جاء فعل (القول) في هذه السورة متناسقًا مع سائر الأفعال، ولكن وفي سورة الأعراف فإنّ الآيات السّابقة جاءت بفعل (قال) وهي مسندة إلى ضمير مستتر يرجع إلى الله تعالى؛ كقوله: ﴿ قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ ؛ ﴿ قالَ فَاهْبِطْ مِنْها ﴾ ؛ ﴿ قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ؛ ﴿ قالَ اخْرُجْ مِنْها ﴾[6] فجاء فعل القول متناسقًا مع الأفعال السابقة له. أمّا في سورة (طه) فقد جاءت الآيات السابقة فيها مسندة إلى ضمير

(١) السامرائي،١٤٢٠: ٨٤ ٨٦.
(٢) سورة البقرة؛ الآية : ٣٦.
(٣) سورة الأعراف؛ الآية : ٢٤.
(٤) سورة طه؛ الآية : ١٢٤.
(٥) سورة البقرة؛ الآيتان : ٣٤ ٣٥.
(٦) سورة الأعراف؛ الآيات : ١٢ ،١٣ ،١٥ ،١٨.

(ربّه) في قوله: ﴿ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ۝١٢١ ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى ﴾ لذلك نرى أنّ الفعل جاء متناسباً مع هذه الآيات[١].

كذلك فقد تكرّر فعل (اهبطوا) مرّتين في سورة البقرة. ويرى بعض المفسّرين أنّ الهبوط الأوّل كان من الجنّة إلى السماء الدنيا والهبوط الثاني كان من السماء الدنيا إلى الأرض[٢].

ولكنّ بعض الباحثين له رأي آخر إذ يرى أنّ إعادة هذا الفعل هي بسبب التباس الأمر على آدم وزوجه ؛ إذ أُمرا بالهبوط بعد العصيان فتابا إلى الله توبة نصوحًا، وظنّا أنّ الأمر بالهبوط قد زال عنهم، فلذلك تمّت إعادة هذا الفعل كي يعلما أنّ الأمر لم يزل واقع[٣].

لقد جاء فعل (هبَط) في هذه الآيات على نحو التثنية والجمع؛ لذلك نرى أنّ للمحقّقين في تحديد المخاطب في هذه الآيات رؤى مختلفة؛ يقول (جوادي آمُلي) عن صيغة الجمع في هذا الفعل مشيرًا إلى هاتين الآيتين: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلا ما تَشْكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُم ﴾[٤] يمكننا القول بأنّ البحث هنا لا يخصّ آدم وزوجه إذ تبدأ الآيات هنا بضمير (كم)، والآيات هنا تخاطب جنس الإنسان. إذن فمخاطب آية آدم هم؛ آدم وزوجه وذرّيته وحتّى إبليس وذرّيته. فمن هذا المنطلق نجد أنّ قوله: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يعمّ عداوة الشيطان لآدم وذرّيته وكذلك عداوة ذرية آدم مع بعض[٥].

وهناك آخرون يعتقدون بأنّ خطاب الآية يخصّ آدم وزوجه ، وأنّ التعبير بالجمع هو من أجل اتّباع ذريّتهما لهما.[٦] لكن، ونظرًا لذكر اسم آدم، وزوجه وإبليس في هذه الآيات فليس من الصحيح تخصيص الضمير في قوله: "اهْبِطُوا" لبعضهم دون غيره. إذن فعندما

(١) الصامل، ١٤٢٢: ١٥٨.
(٢) الفخر الرازي، ١٤٢٠: ٢/ ٢٥؛ ابن عاشور، د.ت: ١/ ٤٤٠.
(٣) السيوطي، ١٤١٤: ١/ ٢٣؛أبو السعود، د.ت: ١/ ١٦١.
(٤) سورة الأعراف؛ الآيتان: ١٠ ١١.
(٥) .جوادي آملي، ١٣٩٢: ٢٨/ ٣٠٣.
(٦) الزمخشري، ١٤٠٧: ١/ ٢٧٤؛ الآلوسي، ١٤١٥: ١/ ٢٣٧.

يُورد هذا الفعل على نحو الإفراد فهو يعني إبليس، وفي استعماله على نحو التثنية يدلّ على آدم وزوجه ؛ لأنّهما باشرا عمل العصيان حينما أكلا من الشّجرة.

أيضًا يمكن إرجاع الضمير إلى آدم وإبليس وبالتالي إدخال زوج آدمَ في الحكم تبعًا لوجود آدم؛ وبما أنّ آدم وإبليس هما أبوا ذرّيتهما وفي ذكر أمرهما عبرة لأبنائهما ، فيمكن القول بأنّ ضمير التثنية يرجع إليهما. أمّا ضمير الجمع فيرجع إلى آدم وزوجه وإبليس؛ لأنّهم الأساس والركيزة في هذه القصّة. وفضلا عمّا ذُكر، نجد نصّ الآية حول دليل إتيان فعل (اسكن) في سورة البقرة نجده قد جاء مع النداء، وعدم وجود النداء في الأمر بالهبوط نقول: نظرًا إلى السياق الموجود نجدُ أنّ الآية تحمل معها معنى التكريم لآدم؛ ولذلك جاء [قوله: "يا آدم اسكن"] مع حرف النداء. أمّا بالنسبة إلى أمر الهبوط فلأنّه يرافق العقاب والمؤآخذة لآدم بسبب العصيان فلم يأت مع النداء.(١)

مما يلفت النظر في هذا المقام هو قبول توبة آدم والأمر بالهبوط: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢) وقد جاء المضمون نفسه في سورة طه بتعبير آخر في قوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى ﴾(٣) ، وجاء فعل (تبع) في سورة البقرة على الثلاثيّ المجرّد بينما جاء الفعل نفسه في سورة طه على الثلاثيّ المزيد. وبعضهم يرى أنّ لفعلَي (تبع) و(اتّبع) في هذا المقام معنى واحد ؛ وذلك لأنّ البناء على الثلاثي المزيد في سورة طه ليس إلّا من أجل التناسق مع الآيات السّابقة.(٤) ولكن هذا الرأي نظرًا إلى الفاصلة الكبيرة الموجودة بين الآيتين يبدو بعيدًا عن الصواب؛ لأنّ البناء على الثلاثيّ المجرّد في قوله: "تبعَ" هو الأصل، والبناء على المزيد في قوله: "اتّبع" فرع. وبالنظر إلى قاعدة (زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني) لا يمكن القول بأنّ للفعلين معنى واحد.

(١) الصامل، ١٤٢٢: ١٥٩.
(٢) سورة البقرة؛ الآية : ٣٨.
(٣) سورة طه؛ الآية : ١٢٣.
(٤) الراغب الإصفهاني، ١٣٧٤: ص ٧٢؛ الكرماني، ١٤١٨: ١٢٠؛ الأنصاري، ١٩٨٣: ٢٦.

كما أنّ هذا الاختلاف قد ألفت انتباه بعض المحقّقين حتّى أنّهم قالوا فيه: "إنّ فعل (تبع) المجرّد يدلّ على التبعيّة البعيدة عن التكلّف والمشقّة، وإنّ فعل (اتّبع) المبنيّ على المزيد هو من باب الافتعال، ويدلّ تكليف النفس وتحميلها الاتّباعَ. وبعض آخر من المحقّقين يقرّون هذا الرأي مذعنين بأنّ الله اكتفى في سورة البقرة في قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها ﴾[1] فلم يذكر تفصيل العمل الذي قام آدم وزوجه به بعد أنْ أزلّهما، وهذا الأمر يؤيّد الرأي السابق في فعل (تبع). أمّا في سورة (طه) فقد تعرضت الآيات لتوضيح كيفية إغواء الشيطان آدمَ في قوله: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى ﴾[2] مما يبيّن لنا مدى قوّة غواية الشيطان الناجمة عن جهده وسعيه الكبير في إضلال آدم والذي يتناسب مع فعل (اتّبع) في هذه الآيات[3].

قام بعض الباحثين أيضًا نظرًا إلى الفقرات الأخيرة المذكورة في الآيات ببيان الاختلاف بين (تبع) و(اتّبع)؛ لأنّ آية سورة البقرة تنتهي بقوله: ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾[4]، وآية سورة طه تنتهي بقوله: "فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى"[5] وبما أنّ الحقّ سيظهر للجميع في يوم الحساب فلا معنى للضلالة آنذاك؛ إذن فقوله: "فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون" مختصّ بالآخرة، وقوله: ﴿ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى ﴾ يشير إلى عالم الدنيا. كذلك، فإنّ الشّقاوة في الدنيا؛ نظرًا إلى قوله: ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى ﴾[6]؛ إذن فآية سورة طه تشير إلى الدنيا والآخرة وآية سورة البقرة تدلّ على الآخرة فقط، لذلك فإنّ الآية ١١٧ من سورة طه تتضمّن معنى الابتعاد عن الشقاوة في الدنيا والحصول على السعادة والفلاح في الآخرة، أمّا الآية ١٢٨ من سورة البقرة فتتضمن معنى الفلاح والسعادة في الآخرة فقط، وبما أنّ معنى آية طه يحتاج إلى جهد ومثابرة أكبر فقد تمّ استعمال الفعل فيها

(١) سورة البقرة؛ الآية: ٣٦.
(٢) سورة طه؛ الآية: ١٢٠.
(٣) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ١٩٠؛ البقائي، ١٤١٣: ١/ ٢٩٨.
(٤) سورة البقرة؛ الآية: ٣٨.
(٥) سورة طه؛ الآية: ١٢٣.
(٦) سورة طه؛ الآية: ١١٧.

ليدلّ على المبالغة والتكلّف، وعكس ذلك يجري في آية سورة البقرة.[١]

٤- الاختلافات في استعمال الآيات المتشابهة في اللفظ

يمكن توضيح هذه الاختلافات في أقسام مختلفة نظرًا إلى أنّ المتشابهات في اللفظ قد تختلف في التقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، والجمع والمفرد، والتعريف والتنكير، والإيجاز والإطناب وغير ذلك من الأمور.

١ـ ٤ـ الاختلاف نظرًا إلى بناء الفعل

١ـ ١ـ ٤ـ ذكر الاسم أو الصفة جمعًا أو مفردًا

في هذه الآيات وبالرغم من أنّ الموصوف ثابت إلّا أنّ الصفة تأتي مختلفة عنه. فتارة تأتي على نحو الجمع أو المفرد. ومثال ذلك ظاهر في آيتَي: ﴿ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ ﴾[٢]؛ و ﴿ وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً ﴾[٣] فجاءت هنا مفردة (أيّاما) كما هو ظاهر موصوفة بالجمع والإفراد. ويقول السيوطيّ هنا: "القائل بهذه العبارة [معدودة] هم فريقان من اليهود ؛ الفريق الأوّل منهم كان يعتقد بأنّهم سيعذّبون لسبعة أيّام بعدد أيّام [خلق] الدنيا؛ والفريق الآخر منهم كان يعتقد بأنّهم سيعذّبون لأربعين يومًا؛ وذلك بعدد الأيّام التي عبدَ آباؤهم العجل. فيبدو أنّ آية سورة البقرة جاءت بناءً على ادّعاء الفريق الأوّل بجمع الكثرة، وآية سورة آل عمران جاءت بجمع القلّة بناءً على دعوى الفريق الأوّل من اليهود".[٤]

وهناك آخرون يأتون بسبب الاختلاف بعد التفاصيل الكثيرة التي يذكرونها حول الصفات وجمعها ، متّكئين على الإيجاز والإطناب الموجود في سياق كلّ من الآيتين ، بعيدًا عن آراء النحويين والقواعد العربية مستدلّين بأنّ الكلام في آية سورة البقرة مبنيّ على الإيجاز على عكس آية سورة آل عمران؛ وذلك بدليل ذكر استكبارهم وغرورهم في دينهم

(١) السامرائي، ١٤١٨: ٢٩٣.
(٢) سورة آل عمران؛ الآية : ٢٤.
(٣) سورة البقرة؛ الآية : ٨٠.
(٤) السيوطي، ١٤٢١: ٢/ ٧٥.

في سورة آل عمران في قوله: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُون ﴾[1] وعدم ذكر هذا الأمر في سورة البقرة[2].

ويرى آخرون بأنّ السياق في الآيات هو سبب هذا الاختلاف؛ وذلك بمعنى أنّهم مع معرفتهم بذنبهم إلّا أنّهم كانوا يصرّون على أفعالهم كما جاء في قوله: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾[3]، فكانوا يعلمون بأنّ الله سيعذّبهم بما فعلوه إلّا أنّهم كانوا يقولون بأنّ مدّة عذابهم لن تطول فجاء ذكر العذاب في هذه الآية مبنيًا على الكثرة في قوله: ﴿ أَيَّاماً مَعْدُودَة ﴾ فقال مرة (معدوده) ومرة أخرى (معدودات) مع أنّ القصة واحدة ؛ والحقيقه أنّ السياق فى الموضعين مختلف ، وإيضاح ذلك أنّ المفرد المؤنث إذا وقع صفة للجمع دلّ على أنّ الموصوف أكثر منه إذا كانت صفته جمعا سالما، ولكن في سورة آل عمران لم يأتِ ذكر ارتكابهم الذنوب على علم وعمد منهم في قوله: ﴿ أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝٢٣ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُون ﴾[4] ؛ وبما أنّ هناك بونا شاسعا بين القيام بالذنب على علم وقصد، وبين القيام به بغير علم، فجاء ذكر العذاب الأطول في المدّة للذنب الأكبر، والعذاب الأصغر في الأمد للذنب الأصغر[5].

٢-١-٤- الاختلاف في تذكير وتأنيث الضمير

قد يختلف الضمير في الآيات المتشابهة فتارة يكون مذكرًا وأخرى مؤنّثًا؛ فمثلا في

(١) سورة آل عمران؛ الآية : ٢٤.
(٢) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ٢٢٧.
(٣) سورة البقرة؛ الآيتان : ٧٥ ٧٦.
(٤) سورة آل عمران؛ الآيتان : ٢٣ـ٢٤.
(٥) السامرائي، ١٤١٨: ٤١.

آيتَي ٤٨ و٤٩ من سورة آل عمران يقول تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ هنا يرجع ضمير (فيه) إلى (الطير) وهو ضمير مذكر، على عكس الآية ١١٠ من سورة المائدة في قوله: ﴿ إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾، هنا تم استعمال الضمير المؤنّث في (فتنفخ فيها). يقول الإسكافي بعد البحث الأدبيّ ذيلَ هاتين الآيتين: "من الأفضل أن يأتي الضمير مذكرًا في الآية الأولى؛ بسبب أنّ عيسى ﷺ يعدد فيها معاجزه إلى بني إسرائيل، وبما أنّه أوّل من استطاع أنْ يلقي الحياة في تمثال من طين وهذا يُعدّ عملًا معجزًا ؛ فتذكير الضمير هنا أولى من تأنيثه ؛ أمّا في الآية الثانية فالمتكلّم هو الله سبحانه وهو يذكر نعمه على عيسى ﷺ وما وهبه من معاجز في قوله: ﴿ إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ... ﴾ لذلك فإنّ الآية ليست بصدد بيان المعجزات التي أتت إلى بني أسرائيل وإنما هي في مقام ذكر تلك النِعَم والمعاجز الدالّة على صدق عيسى ﷺ ونبوّته.[1]

يذكر (كرماني) بعد بيان الآيات من وجهة أدبية : "الآية الأولى هي حول معاجز عيسى ﷺ، ولكن قبل وقوعها، إذن فالطير هنا مفرد وضميره كذلك. ولكن في الآية الثانية فالخطاب لعيسى ﷺ في يوم القيامة؛ ذلك اليوم الذي قام عيسى ﷺ بإحياء الطير قبله مرارًا وتكرارًا. فيكون الطير هنا بمعنى الجمع وجاء ضميره على التأنيث؛ لأنّ قوله: "طيرا" اسم

(١) الخطيب الإسكافي، ١٤١٠: ٦٥

يطلق على المفرد والجمع.[1]

أمّا ابن الزبير فقد قام بتحليل الآيتَين نظرًا إلى سياقهما وهو يعتقد بأنّ في سورة آل عمران، وقبل هذه الآية هناك ما يقارب عشرين ضميرًا مذكرًا؛ وهذا هو السّبب في أنّ جاء الضمير فيها مذكرًا. ولكن في سورة (المائدة) وبما أنّه جاء في بداية الآية قوله: ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ فيكون الإتيان بالضمير المؤنّث هنا أنسب وأولى.[2]

٣-١-٤- الاختلاف في إعراب المفردات

يختلف الموقع الاعرابي بحسب موضع المفردة من الجملة؛ وذلك يكون أحيانًا في المتشابهات؛ وهذا يدلّ على اختلاف مقام تلك المفردة في الآيتين. وهذا الاختلاف قد يرشدنا إلى آراء حديثة في علم التفسير. فمثلا في آيَتي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة البقرة؛ ٦٢)؛ و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ (سورة المائدة؛ ٦٩) ، جاءت مفردة (الصابئين) منصوبة في الآية الأولى بينما رُفعَت المفردة نفسها في الآية الثانية. يقول الإسكافي في بيان هذا الاختلاف: في الآية التي جاءت مفردة (الصابئين) منصوبة بعد (النصارى) فإنّ الله يذكر المذاهب المختلفة نظرًا إلى رتبتها؛ ورتبة المذاهب والأديان على حسب امتلاكها لكتاب سماويّ أو عدم ذلك. وبما أنّ للنصارى كتابا سماويّا ولم يكن ذلك للصابئين، فجاءت مفردة (الصابئين) بعد النصارى. ولكن في الآية الثانية فإنّ الترتيب على أساس قِدَم تلك الأقوام وبما أنّ الصّابئة أقدم من النصارى فقد ذُكروا قبلهم في الآية. كذلك جاءت (الصابئون) مرفوعة دلالةً منه على أنّ الصّابئة أقلّ شأنا ومرتبة من النصارى. ومن جانب آخَر، فإنّ رفع (صابئون) هو من باب (قطع اسم إنّ عن حكم النصب) ؛ وذلك لا يمكن في ما ذهب إليه (سيبويه) والبصريون.

(١) الكرماني، ١٤١٨: ٤٣.
(٢) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ٣٠٢.

وقد أجازه أكثر نحاة الكوفة كـ: (إنّ زيداً وعمروٌ قائمان).[١] ويتّبع الكرمانّي أيضاً هذا الرأي.[٢]

٢-٤- الاختلاف في بناء الفعل

١-٢-٤- الاختلاف في الفعل

وهناك آيات يشترك فيها المضمون الإجماليّ، ولكنّ الفعل يختلف فيهاوبعد التأمّل قليلا يمكننا معرفة أنّ هذا الاختلاف متناسب مع المعنى الخاصّ الذي تدلّ عليه كلّ آية. ومثال ذلك هو آية ٦٠ من سورة البقرة: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ والآية ١٦٠ من سورة الأعراف: ﴿ وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطا أُمَما وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ إذ استُعمل فعل (انفجرت) في آية البقرة، و(انبجست) في آية الأعراف.

يشير الكرماني إلى اختلاف الفعلين في المعنى فحسب، ويذكر قائلا: "إنّ "الانفجار"بمعنى صبّ الماء وانحداره بشكل غزير، بينما "الانبجاس" بمعنى نبع الماء وظهوره".[٣] ولكنه لم يتطرّق لارتباط هذه المعاني مع سياق الآيتين. ويعبرّ ابن الزبير عن الانبجاس بأنّه بداية الانفجار، والانفجار هو غاية الانبجاس، ويشير قائلا: "في سورة الأعراف جاء ذكر قوم موسى وطلبهم الماء منه في قوله: ﴿ وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُه ﴾[٤] ، أمّا في سورة البقرة فموسى ﷺ هو من يطلبُ الماء من ربّه: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ ﴾[٥]، إذن قد جاء قوله: ﴿ فَانْبَجَسَتْ ﴾ جواباً لبني إسرائيل وقوله:

(١) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ٢١)
(٢) الكرماني، ١٤١٨: ٧٥
(٣) الكرماني، ١٤١٨: ٧٢
(٤) سورة الأعراف؛ الآية : ١٦٠
(٥) سورة البقرة؛ الآية : ٦٠

﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ استجابة لطلب موسى عليه السلام.[1]

وهناك تبرير ثالث حول تخصيص كلّ من هذين الفعلين لآيتَي سورة البقرة ، وسورة الأعراف؛ بأنّ السياق في سورة البقرة هو سياق بيان وعدّ النِعَم على بني إسرائيل وهذا الأمر يتناسب مع فعل ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾ ، ولكنّ سياق سورة الأعراف لا يدلّ على ذلك فجاء بالفعل ﴿انْبَجَسَتْ ﴾[2].

٢-٢-٤- اختلاف الفعل في الفك والإدغام

نجدُ في آيتين متشابهتين في القرآن الكريم اختلافا في الأفعال من جهة الادغام و عدم الادغام . وهما الآية ١٣ من سورة الأنفال: ﴿ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقاب ﴾ والآية ٤ من سورة الحشر: ﴿ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَّ فَإِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقاب ﴾ إذ جاء فعل"يُشاقِق" في الآية الأولى غير مدغَم ، وفي الآية الثانية جاء فيه إدغام. لا يخفى أنّه لا فرق في المعنى بين الفعل المدغَم وغير المدغم ؛ ولكنّ ذلك لا يدلّ على عدم اختلافهما بلاغيّا في استعمال القرآن؛ لأنّ توظيف المفردات في القرآن لم يقع على الصّدفة، ولا شك أنّ السّياق كان يقتضي استعمال كلّ منهما في موضعه ؛ لذلك فإن بعض المحققين يعتقدون بأنّ استعمال الفعل المدغَم في سورة الحشر للتناسب والتناسق مع الفعل السابق له وهو فعل: "شَاقُّوا". ولكن في سورة الأنفال قد جاء الفعل بغير إدغامٍ تناسقا مع العطف الذي يليه في قوله: "اللهَّ وَرَسُولَهُ" وذلك لشبه العطف، وبالفَك لا الإدغام. وهذا هو دليل الفك والإدغام في الفعلين[3].

٣-٢-٤- الاختلاف في الحرف الزائد

قد يأتي الفعل ثلاثيًّا مزيدًا في الآيتين المتشابهتين إلّا أنّه يختلف مع نظيره في الحرف الزائد، فمثلا يأتي أحد الفعلين في الآية على صيغة (فَعَّلَ) ، والثاني في الآية الأخرى على

(١) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ٦٨.
(٢) السيوطي، ١٤٢١: ٣/ ٣٤٢، د.ت: ٨٩.
(٣) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ٢١٤.

صيغة (أفعلَ)؛ كقوله: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيم ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيم ﴾ (سورة الأعراف؛ ١٤١) يمكن معرفة ما ذكرناه في (نجّينا) و(أنجينا). وهذا الاختلاف يدلّ على اختلاف في المعنى أيضًا إذ لا يمكن استعمال أحد الفعلين بدل الآخر.

يقول ابن الزبير عن ايراد صيغة (فعّلَ) الدالّة على الكثرة في آية سورة البقرة بدليل السياق الموجود فيها بالنسبة إلى تذكير بني إسرائيل بالنِعَم النازلة عليهم، وبيان قبح كفرهم في قبال هذه النعم ، وتوبيخهم من جانب الله بسبب ضلالهم وإلحاحهم على الضلال. أمّا في سورة الأعراف فلا يوجد سياق يدلّ على ما يدلّ عليه سياق سورة البقرة. كما أنّ فعل "نَجَّيْناكُمْ" في الآية ٤٩ من سورة البقرة يناسب فعل "يُذَبِّحُونَ"[2].

ويرى السامرّائيّ بأنّ فعل "نجّى" يدلّ على البطئ والتأخير في النجاة والفلاح على عكس فعل "أنجى" إذ يدل على سرعة الفلاح ؛ كذلك ففي سورة البقرة لا يوجد سوى هذه الآية ما يدلّ على أمر بني إسرائيل مع فرعون والظروف والمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه آنذاك. أمّا في سورة الأعراف فيأتي ذكر هذه الأمور على التفصيل بداية من الآية ١٠٤ إلى ١٤١ من هذه السورة. فمثلا يأتي ذكر مواجهة موسى لفرعون، الدعوة إلى الإيمان وإظهار المعاجز، قصّة موسى والسّحرة وإيمانهم به وغيرها ؛ لذلك نجد أنّ ذكر ما جرى على بني إسرائيل من ظروف حرجة في سورة الأعراف أكثر من سورة البقرة، وبالتالي هي أقرب في التسريع بالنجاة والخروج من تلك الظروف؛ لذلك نرى استعمال فعل (نجّينا) في سورة البقرة ، و(أنجينا) في سورة الأعراف[3].

(١) سورة البقرة؛ الآية : ٤٩.
(٢) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ٥٣ ٥٥.
(٣) السامرائي، ١٤٢٠: ص ٧٤ ٧٠.

٤-٢-٤- الاختلاف في تذكير الفعل وتأنيثه

نجد في القرآن أنّ الفعل رغم اتّحاد فاعله يأتي بـ(تاء) التأنيث تارة وأخرى بغير التاء. ومثال ذلك قوله: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِك ﴾[١] وقوله: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِك ﴾.[٢] ولا يخفى أنّ الفاعل أذا كان جمعاً مكسّرًا فيجوز الإتيان بـ(تاء) التأنيث أو عدم الإتيان بها، ولكن على الرغم من هذا الجواز إلّا أن هذه التاء لا تأتي أو تحذف إلّا لغرض معلوم في الكلام البليغ ؛ لذلك يعتقد البعض بأنّ قوله: (كذّب) في آية سورة آل عمران جاءت متناسبة مع الجمع المذكر في قوله: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُوا بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ الْمُنِيرِ ﴾[٣] أما في آية سورة فاطر فتأنيث الفعل يناسب فعل (تُرجع) في نهاية الآية[٤].

ويرى بعض النحويين نظرا للقاعدة التي تقول: "إنّ الفعل المذكر يدلّ على القلّة والفعل المؤنث يدلّ على الكثرة" فيعتقدون بأنّ الرسل التي كذّبوا في سورة آل عمران هم أقلّ من الرسل التي كذّبت في سورة فاطر؛ وهذا هو دليل التذكير والتأنيث في الآيتين. إنّهم يستدلّون على كلامهم بأنّ تمّ تقييد الرسل في سورة آل عمران بقوله: "جاءوا بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتابِ الْمُنِيرِ" خلافًا للرسل المذكورين في سورة فاطر الذين ذكروا على نحو الإطلاق، ولا شك أنّ المطلق أعمّ وأوسع من المقيّد.[٥]

٤-٣- الاختلاف في بناء الجملة

٤-٣-١- الاختلاف كون الجملة اسمية أو فعلية

قد تختلف الآيتان المتشابهتان في كون إحدهما اسمية والأخرى فعلية ، ومثال ذلك:

(١) سورة آل عمران؛ الآية : ١٨٤.
(٢) سورة فاطر؛ الآية : ٤.
(٣) سورة آل عمران؛ الآية : ١٨٤.
(٤) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ١٨٢.
(٥) السامرائي، ١٤٣٠: ١٤١.

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُم ﴾[1] و ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِين﴾[2] فجاء كلام النبيّ نوح في الآية الأولى في جملة فعلية وهي: "أَنْصَحُ لَكُم" ، أمّا في الآية الثانية فقد جاء كلام النبيّ هود ﷺ في جملة اسمية: "أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِين". ونظرًا إلى أنّ اللغويين يرون أنّ الاسم يفيد الثبوت ، وأنّ الفعل يفيد الحدوث والتجدد؛ فهناك آراء مختلفة في سبب اختلاف بناء الآيتين.

وإحدى هذه الآراء هي لابن الزبير؛ إذ يعتقد بأنّ نوحًا ﷺ النبي كان يصرّ على نُصح قومه وإبلاغ رسالته ؛ لذلك جاء كلامه في إطار جملة فعلية. كذلك في هذه الآية يذكر لقومه ما يعلم وما يجهلون من أمر الله في قوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِّ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾[3] وإنّ فعلَي (أنصح) و(أعلم) في هذه الآية يتناسبان معًا. أمّا في الآية الثانية فقد أتى الله بكلام النبيّ هود ﷺ في إطار جملة اسمية ليبيّن أنّ صفة (الناصح الأمين) من الصّفات الذاتية لهذه النبيّ ﷺ فلا تنفصل عنه هذه الصّفة. فلو جاء كلامه في جملة فعلية لم تكن تدلّ على هذا الأمر.[4]

يقول الفخر الرازي في الاختلاف الموجود بين هاتين الآيتين: "كانت عادة نوح ﷺ أن يدعو قومه للإيمان كلّ يوم وساعة. لذلك جاء كلامه في جملة فعلية. والجملة الاسمية في كلام هود ﷺ فهي تدلّ على ثبوته واستقامته في نصحه لقومه.[5] كما أنّ كلام نوح ﷺ صادرٌ بعد اتّهام قومه له بالضلال: ﴿ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِين ﴾[6] أمّا كلام هود ﷺ فإنّما هو صادرٌ بعد اتّهام قومه له بالسفاهة: ﴿ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَة ﴾[7] والسفاهة من الصّفات التي تستلزم ثبوت صاحبها عليها، فجاءت بما يدلّ على الثبوت

(١) سورة الأعراف؛ الآية : ٦٢.
(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٦٨.
(٣) سورة الأعراف؛ الآية : ٦٢.
(٤) الغرناطي، ١٩٧١: ١/ ٤٠١.
(٥) الفخر الرازي، ١٤٢٠: ١٤/ ١٥٦.
(٦) سورة الأعراف؛ الآية : ٦٠.
(٧) سورة الأعراف؛ الآية : ٦٦.

خلافاً للضلالة فهي أمر عارضي يذهب عندما تحلُّ الهداية في قلب الإنسان بدلها. لذلك جاءت بما يدلّ على الحدوث.(١)

٢-٣-٤- التقديم والتأخير في جزء من الجملة

نجد في بعض الآيات رغم التشابه اللفظي فيها أنّ في أجزاءها تقديما وتأخيرافمثلا يمكننا مشاهدة هذا الأمر في الآية ١٠٢ من سورة الأنعام: ﴿ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، والآية ٦٢ من سورة غافر ﴿ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُو ﴾.

لقد قام الباحثون في علوم القرآن بتبرير تقديم كلّ جزء من هاتين الآيتين بأنّه يناسب سياق تلك الآية ، وعلّلوا رأيهم في هذا المجال بقولهم أنّ قبل آية سورة الأنعام تمّ ذكر [الجنّ شركاء للهّ] من قِبَل المشركين وقد نسبوا له البنين والبنات؛ فجاء الله بالردّ عليهم بتقديم قوله: ﴿ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾. أما في سورة (غافر) فإنّ الموضوع قبل هذه الآية يدور حول خلقة الإنسان لا نفي الشريك للهّ؛ إذن فمن الواضح أولوية ذكر"خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ".(٢)

أيضا يمكن أنْ يكون هذا التقديم والتأخير في ضمير واحد فحسب، ولكنّه أيضا لا يكون إلّا من أجل السياق والتناسق مع الكلام. إذ نجد هذا الأمر في آية ١٥١ من سورة الأنعام: ﴿ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُم ﴾ ، والآية ٣١ من سورة الإسراء: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ إذ اتّصل ضمير (كم) بالفعل وتقدّم على (هم) في الآية الأولى. أمّا في الآية الثانية فقد جاء ضمير (هم) في موقع ضمير (كم) في الآية الأولى. يقول السّيوطي في شرح هاتين الآيتين : بأنّ الخطاب في الآية الأولى موجّهٌ إلى الفقراء؛ لذلك قدّم ضمير (كم) ليُعلمهم بأنّ الله سيرزقهم ويرزق أولادهم. ولكنّ الخطاب في الآية الثانية موجّه نحو الأغنياء؛ لذلك قدّم ضمير (هم) ليعلمهم بأنّ الله يقسم الرزق الأولادهم فلا يقتلوهم خوفًا من الفقر(٣).

(١) ابن جماعة: ١٤١٠: ١٧٩.

(٢) الكرماني، ١٤١٨: ١١٢؛ الخطيب الإسكافي، ١٤١٠: ١٢٧؛ الزركشي، ١٤١٨: ١١٢؛ ابن جماعة، ١٤١٠: ١٦٤.

(٣) السيوطي، ١٤٢١: ٢/ ٣٦٥.

النتائج:

طالما كانت مسألة فهم القرآن، واستيعاب معانيه، ومفاهيمه على منهجية خاصّة، هي ما يرمي إليه المفسّرون والمحقّقون، لكنّ الآيات المتشابهة في اللفظ سلّطت الأضواء على نفسها لوجود الألفاظ المتشابهة فيها. والملفت للنظر في هذه الآيات أنّها رغم اختلافها في التقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، وذكر بعض الأجزاء وحذفها، والتعريف والتنكير، والجمع والمفرد وغيرها؛ إلّا أنّ بعض المحقّقين قاموا بالتحليل والدراسة في معانيها في إطار دراسة النقاط الصرفية، أو النحويةوقد أتّجه بعضهم نحو القرائن المختلفة كالسياق في تلك الآيات.

ولكن بعد إمعان النظر في هذا الباب يمكننا القول: بأنّ المفسّرين الذين ذكروا السياق في آرائهم قد نجحوا في الحصول على طريقة أكثر منهجية في تفسيرهم، واستطاعوا أنْ يصلوا إلى آراء أكثر دقّة وصواب في أسباب الاختلاف في الآيات المتشابهة؛ حتّى أنّهم استطاعوا ردّ كلّ تناقض يبدو في ظاهر هذه الآيات، وكذلك قد تمكنوا من بيان التناسب والتناسق والترابط المعنويّ الموجود بين آي القرآن الكريم. وأخيرا يمكن القول بأنّ فهم معنى الآيات المتشابهة يكون أكثر سهولة ودقّة إذا ما كان في إطار سياق تلك الآيات.

المصادر و المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. ابن الأثير، مجد الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، د.م: دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي، ١٣٨٣هـ.ق.

٣. ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم، كشف المعاني في المتشابه المثاني، د.م: دار الوفاء، ١٤١٠هـ.ق.

٤. ابن عاشور، محمد بن طاهر، التحرير والتنوير، بيروت: مؤسسة التاريخ، د.ت.

٥. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، قم: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.ق.

٦. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ.ق.

٧. أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكوفي، الكليات، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ.ق.

٨. أبو السعود، محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

٩. أبو حيّان، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.ق.

١٠. أبو زينة، محمد بن منصور، الحذف والذكر في المتشابه اللفظي، عمان: الجامعه الأردنية، رسالة ماجيستر، ٢٠٠٢م.

١١. آذرنوش، آذرتاش، فرهنگ معاصر عربي فارسي [المُعجم المعاصر؛ عربي فارسي]، طهران: نقش جهان، ١٣٨٨هـ.ش.

١٢. الآلوسي، السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.ق.

١٣. الأنصاري، زكريا، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨٣م.

١٤. البقايي، برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ.ق.

١٥. بودرع، عبد الرحمن، منهج السياق في فهم النص، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د.ت.

١٦. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ.ق.

١٧. جوادي آملي، عبد الله، تفسير تسنيم، قم: نشر إسراء، ١٣٩٢هـ.ش.

١٨. الحسيني، محمّد رضا، كيف نفهم القرآن؟، د.م: دار الفردوس، ١٩٨٨م.

١٩. الخطيب الإسكافي، محمد بن عبد الله، درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهات، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٠هـ.ق.

٢٠. دروزة، محمد عزّة، القرآن المجيد؛ تنزيله وأسلوبه، صيدا: المطبعة العصرية، د.ت.

٢١. الراغب الأصفهاني،حسن بن محمد، مفردات الفاظ القرآن، تهران: مرتضوة، ١٣٧٤هـ.ش.

٢٢. رضايي كرماني، محمد علي، جايگاه سياق در تفسير الميزان [دور السياق في تفسير الميزان]، فصلنامه پژوهش‌هاي قرآني، العدد ١٠، ١٣٧٦هـ.ش.

٢٣. الزبيدي، مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ.ق.

٢٤. الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٨هـ.ق.

٢٥. الزمخشري، محمود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت: دار الكتاب العربية، ١٤٠٧هـ.ق.

٢٦. السامرائي، محمد فاضل صالح، التعبير القرآني، الأردن: دار عمار، ١٤١٨هـ.ق.

٢٧. السامرائي، المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، عمان: دار عمار، ١٤٣٠هـ.ق.

٢٨. السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، الأردن: دار عمار، ١٤٢٠هـ.ق.

٢٩. سيّد قطب، إبراهيم الشاذلي، في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق، ١٤١٢هـ.ق.

٣٠. السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، بيروت: دار الكتب العربية، ١٤٢١هـ.ق.

٣١. السيوطي، قطف الأزهار في كشف الأسرار، قطر: إدارة شؤون الإسلامية، ١٤١٤هـ.ق.

٣٢. السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، د.ت، دار الفكر العربي، د.ت.

٣٣. الشرتوني، رشيد، المبادئ العربية، قم: نشر هاجر، ١٣٨٩هـ.ش.

٣٤. لصامل، محمد علي، من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، رياض: مكتبة الملك فهد الوطنية،١٤٢٢هـ.ق.

٣٥. الصدر، محمد باقر، دروس في علم الأصول، قم: انتشارات دار الصدر، ١٤٣١هـ.ق.

٣٦. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، طهران: كتاب فروشى مرتضوي، ١٣٧٥هـ.ش.

٣٧. الغرناطي، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، ملاك التأويل، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧١م.

٣٨. الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، بيروت: دار إحياء التراث العربية، ١٤٢٠هـ.ق.

٣٩. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٠م.

٤٠. فوزي، عيسى، علم الدلالة، مصر: دار المعرفة، ٢٠١١م.

٤١. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٢م.

٤٢. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير، د.ت: المطبعة الأميرية، ١٩١٢م.

٤٣. الكرماني، محمود بن حمزة، البرهان في متشابه القرآن، د.م: دار الوفاء، ١٤١٨هـ.ق.

٤٤. اشين، عبد الفتاح، من أسرار التعبير القرآني، د.م: شركة مكاتبات عكاظ، ١٤٠٣هـ.ق.

٤٥. المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٣٠هـ.ق.

٤٦. معرفت، محمد هادي، علوم قرآني [العلوم القرآنية]، قم: مؤسسة التمهيد، ١٣٨٤هـ.ش.

هو السميع العليم